هجرةُ الرَّسُولِ ﷺ

بين يدي الهجرة:

هُيئتْ المدينة - بإسلامها - لاستقبال المهاجرين الصادقين إليها، وقد أراد الله أن يجعلها حرَم رسوله الله ﷺ.

وأن تكون دار الهجرة والفتح.

وأن يجتمع فيها شَمْلُ المهاجرين الذين كانوا في مكة، أو في غيرها ممَّن هاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم، أو أُخرجوا من ديارهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً

وجديرٌ بالمَدينَة أن تُسمَّى «الدَّار» لتكون أمْنَاً للمتقين.

ولها من تسمية الجنَّة نَسَبٌ ونَصيبٌ، ولها من صفات مَنْ يسكنها بُشرى

وقد قال الله تعالى في صفات الذين رحمهم، فأسكنهم جنَّاته:

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[1].

وقال الله تعالى عن دار الهجرة التي هُيئَتْ للمؤمنين المهاجرين، مُخْبِراً عمَّنْ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ من قبلهم:

---

(١) الرعد: ٢٢ - ٢٤.

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١).

والذين تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ هم «الأَنْصَار».

مَدَحَهُمُ الله بخصائصَ طيِّبةٍ حميدة، من جُملتها محبتهم للمهاجرين.

وقد تَبَوَّأُوا الدَّارَ: المَدينَة المُنَوَّرَة، وأخلَصُوا الإيمان.

والتعريف في «الدَّار» للتَنْويه كأنها الدَّار التي تستحقُ أن تُسَمَّى «داراً»

وقد أعدَّها الله لهم؛ ليكون تبوُّؤهم إيَّاها مَدْحاً.

وكان تبوؤُّهم للدَّار والإيمان من قبل هجرة المهاجرين.

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ من إخوانهم المهاجرين.

وقد بلغ من سماحتهم أنهم أَنْزَلُوهم منازلهم، وأشْرَكُوهم أموالَهم، ونزلوا لهم عن بعض ما يَعِزُّ عليهم.

أليستْ المَدينَة المُنَوَّرَة جديرة بأن تُسَمَّى «الدَّار» في آيات الله - وتلك صفات مَن تبوؤها - كما تُسَمَّى الجنة «الدَّار» وتلك صفات مَنْ كانت الدَّار عُقبى لهم؟

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ

(١) الحشر: ٩.

يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾(١).

إنَّ الله - بفضْله ورحمته - قد أعَدَّ للجنة من يُقيمُ فيها، وبَيَّن صفاتهم، وذكَرَ جزاءَهم؛ ليكونوا للناس أُسوة فيما يُحبُّونَ ويُؤثرون.

وفي البيان تبصرةٌ وتذكرةٌ، وإعذارٌ من الله وإنذارٌ.

وما من صفة من صفاتهم إلاَّ ولها تأثيرٌ بالغ في شئون الناس وحياتهم، وتعاونهم على مرضات ربِّهم.

وبها - لا بغيرها - يمكن أن يقومَ في الحياة أَمْنٌ، وأن يتحقق بين الناس سِلْمٌ

ومَنْ تدبر صفات الذين تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ من قبل هجرة المهاجرين، علم أنها صفاتٌ تأتلف بها القلوبُ، وتأمَنُ بها النفوسُ.

وأيُّ شيء أبرُّ من ذلك؟

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾

وكيف يجدون، وهم قد آثروا إخوانهم بأعزِّ ما يملكون؟!

فلا حقد، ولا حَسَد، بل صَفَاءُ نَفْسٍ وطيبُ قَلْبٍ.

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾

فهم يُقدِّمُونَ إخوانهم المهاجرين على أنفسهم في كلِّ شيء من الطيبات، ولو كان بهم حاجةٌ، فحاجةُ إخوانهم مُقَدَّمَةٌ عندهم على حاجة أنفسهم.

ألا يدلُّ ذلك على أنَّ مَنْ كانَتْ هذه صفاتُهم، كانت الدَّارُ طَيِّبَةً في الدنيا، مُسْتَقَرّاً لهم وموطناً، وكانت جنَّاتُ عَدْنٍ في الآخرة جزاءً ومصيراً؟

---

(١) الرعد: ١٩ - ٢٤.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾

وكانت عليهم من الملائكة تحية وسَلام يدوم ولا ينقطع

﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

*****

ذاكَ ما كان من الأَنْصَار مع المهاجرين، يُقَدِّمونهم على أنفسهم حين قدموا بإيمانهم إلى دار الإيمان وقُبَّة الإسلام، المَدينَة المُنَوَّرَة.

وهي تتهيأ - بمَنْ كان فيها أو هاجر إليها - بمَقْدم سيِّد الخَلْق مُهَاجراً حين يأذن له ربُّه.

وقد شاء الله تعالى أنْ يخرج من مكة إلى المدينة؛ ليرى الناسُ - في هجرته - آيات وآيات.

منذ تآمَرَ أهلُ الكفر عليه، وبَيَّتُوا الغَدْرَ به، وأخذوا بجميع الأسباب التي تُمكّنهم من النَيْل منه.

آياتٌ وآيات رأيناها في هجرته، ورأينا المَكْرَ والكَيْدَ من أهل الكفر والجحود

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(١).

﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾(٢).

هم هنا يَمْكُرون، ونرى بطلانَ مَكْرهم.

---

(١) الأنفال: ٣٠ .

(٢) فاطر: ٤٣.

ونرى طيبةَ وقد جُهِّزت لاستقباله، والأنْصَار وهم يَسْعَوْن - وقد طاب سَعْيُهم - لِتَكُونَ قلوبُهم له موطناً، وقد صَدَّقوه، ونَصَرُوه، واتبعوا النُّور الذي أُنزلَ معه.

وسنرى كيف كانت هجرته ﷺ لمَّا أذنَ الله له، وكيف كان استقبالُ الأنْصَار وفرحهم بمَقدمه.

وسنرى وقائع المَدينَة وما أُنزلَ فيها من قرآن، وفضائلَها وما كان فيها من آيات تُعَلِّمَ الإنسانَ ما يجب أن يكون عليه الإنسانُ في كُلِّ زمان ومكان.

لقد رأينا الإيثارَ يقْتَرنُ بِصِدْق الإيمان.

رأيناه في واقع عندما تآخى «الصادقون» مع «المفلحين» لنُصْرَة الحق وإعلاء كلمة الله

ونقرأ ذلك في حديث القرآن وبيان من السُّنَّة النبويَّة المُطَهَّرة.

أخرج البخاري ومسلم وغيرُهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

«أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَصَابَنِي الجُهْدُ. فَأَرْسَلَ إِلَى نِسَائِهِ، فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شَيْئًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

أَلا رَجُلٌ يُضَيِّفُهُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، يَرْحَمُهُ اللَّهُ؟

فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَار». وفي رواية «فقال أبو طلحة: أنا يا رسول الله ﷺ

فَذَهَبَ به إِلَى أَهْلِهِ، فَقَالَ لامْرَأَتِهِ: ضَيْفُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لا تَدَّخِرِيهِ شَيْئًا

قَالَتْ: وَاللَّهِ، مَا عِنْدِي إِلاَّ قُوتُ الصِّبْيَةِ.

قَالَ: فَإِذَا أَرَادَ الصِّبْيَةُ الْعَشَاءَ فَنَوِّمِيهِمْ، وَتَعَالَيْ فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ، وَنَطْوِي بُطُونَنَا اللَّيْلَةَ.

فَفَعَلَتْ، ثُمَّ غَدَا الرَّجُلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:

لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ عز وجل أَوْ ضَحِكَ مِنْ فُلانٍ وَفُلانَةَ»[١].

فَأَنْزَلَ اللَّهُ فيهما ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ... الآية﴾[٢] والجملة الشرطية في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ هذه الجملة تَذْييل وتوكيد لمَدْح الأَنْصَار والثَّناء عليهم؛ لتناوُله إيَّاهم تناولاً أصلياً.. وهي لكلِّ مَنْ كان كذلك إلى أن يَرِثَ الله الأرضَ ومَنْ عليها.

اجتماع الملأ من قريش وتشاورهم في أمْر الرسول ﷺ:

عَرَفنا من قبل أن الرسول ﷺ عندما بايعه هذا الحيُّ من الأَنْصَار على الإسلام والنُّصْرَة له ولمَنْ اتَّبعَهُ وآوى إليه من المسلمين.

أمَرَ رسولُ الله ﷺ أصحابَه - من المهاجرين من قومه ومَنْ معه بمكة من المسلمين - بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، واللُّحوق بإخوانهم من الأَنْصَار، وقال ﷺ: «إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها».

فخرج الصحابةُ أَرْسَالاً، وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربُّهُ في الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة.

ولم يتخلف معه بمكة أحَدٌ من المهاجرين، إلاَّ مَنْ حُبِسَ أو فُتِنَ، إلاَّ عليَّ بن أبي طالب، وأبو بكر بن أبي قُحافة - رضي الله عنهما -.

وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذنُ رسولَ الله ﷺ في الهجرة، فيقولُ له رسولُ الله ﷺ: «لا تَعْجَلْ؛ لعل الله يجعلُ لك صاحباً» فيطمَعُ أبو بكر أنْ يَكُونَهُ

قال ابنُ إسحاق:

ولما رأت قريشُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قد صارت له شيعَةٌ وأصحاب من غيرهم، بغير بلدهم، ورَأَوْا خُروجَ أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد

---

(١) البخاري - كتاب تفسير القرآن، حديث رقم ٤٥١٠.
(٢) الحشر: ٩.

نزلوا داراً، وأصابوا منهم مَنَعَةً، فَحَذِرُوا خُرُوجَ رسول الله ﷺ إليهم، وعَرَفُوا أنهم قد أُجْمِعَ لحربهم.

فاجتمعوا له في «دار الندوة»(١) يتشاورون فيها ما يصنعون في أَمْر رسول الله ﷺ حين خَافُوه.

ويذكرُ ابنُ إسحاق ما رُوي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال:

لَمَّا أجمعوا لذلك، واتَّعدُوا أن يدخلوا في دار النَّدْوة ليتشاوروا فيها في أمْرِ رسول الله ﷺ غَدَوا في اليوم الذي اتَّعَدوا له - وكان ذلك اليوم يُسَمَّى يَوْمُ الزَّحْمَة - وذَكرَ مَنْ كان في جَمعهم بأسمائهم، وإبليس بينهم، فقال بعضُهم لبعض:

إن هذا الرجل قد كان من أَمْره ما قدْ رَأَيْتُم، فإنَّا - والله - ما نَأمَنُه على الوُثُوب علينا فيمَنْ قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً.

قال: فتشاوروا، وانتهى تشاورُهم إلى القَوْل الذي قالَهُ أبو جهل، وأَقَرَّهُ إبليسُ

وأجملت الآيةُ الكريمةُ ما كان منهم: ﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾

وذاك قَوْل أبي جهل، قال: والله، إنَّ لي فيه لَرَأياً، مَا أراكُم وقعتُم عليه بعد

قالوا: وما هو يا أبا الحَكَم؟

---

(١) دار الندوة: دار بناها قُصي بن كلاب، وجعل بابها إلى البيت، ففيها كان يكون أمر قريش كله من نكاح أو حرب أو مشورة فيما ينوبهم، حتى إن كانت الجارية تبلغ أن تدرع درعها إلا فيها ثم ينطلق بها إلى أهلها، ولا يعقدون لواء حرب لهم ولا من قوم غيرهم إلا في دار الندوة، يعقده لهم قصي، ولا يعذر لهم غلام إلا في دار الندوة، ولا تخرج عير من قريش فيرحلون إلا منها، ولا يقدمون إلا نزلوا فيها؛ تشريفا له، وتيمنا برأيه، ومعرفة بفضله، وإنما سميت دار الندوة لأن قريشا كانوا ينتدون فيها، أي يجتمعون للخير والشر.

قال: أرى أن نأخذ من كُلِّ قبيلة فتىً، شاباً، جليداً، نسيباً، وسيطاً فينا، ثُمَّ نُعطي كُلَّ فتىً منهم سيفاً صارماً، ثُمَّ يَعْمَدُوا إليه، فيضربوه بها ضَرْبَةَ رجلٍ واحدٍ، فيقتلوه، فنستريح منه.

فإنهم إذا فعلوا ذلك تَفَرَّقَ دَمُهُ في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حَرْب قومهم جميعاً، فَرَضُوا منا بالعَقْل[1] فعقَلْناه لهم.

فقال إبليس: القولُ ما قال الرجلُ.. هذا الرأي الذي لا أرى غيرَهُ

فَتَفَرَّقَ القومُ على ذلك وهم مُجْمِعُون له.

فأتى جبريلُ عليه السلام رسولَ الله ﷺ فقال:

لا تَبِتْ هذه الليلةَ على فراشك الذي كُنْتَ تَبيت عليه.

فَلَمَّا كانت عَتْمَةُ الليل اجتمعَ أولئك النَّفَرُ من قريش، يتطلعون من صِيَرِ الباب ويَرْصُدونه، ويريدون بياته، ويأتمرون أيُّهم يكون أشْقَاهَا.

ولا يحيقُ المكرُ السَّيِّئُ إلا بأَهْله:

يَالله! ما هذا الذي بُيِّتَ لَمَنْ أرسلَه الله رحمةً للعالمين؟!

تدبيرٌ أثيمٌ شارك فيه إبليسُ، وظنُّوا - جميعاً - أنهم قد أحكموا تدبيرهم، ونَسُوا الله، فأنساهم أنفسهم.

وربما ظنُّوا أو ظنَّ فرعونُهم وإبليسُهم أنهم قد أفلحوا أو يُفلحون بما صنعوا

وغاب عنهم - من بداية أمرهم وهم يحسبون أنهم يُحسنون صُنْعاً - أنَّ الله قد أضلَّ سَعْيَهُم، وجعلهم الأخسرين أعمالاً.

---

(١) العقل: أي الدِّية.

ولَم أر عقاباً لِمَنْ نسي الله أشدَّ من هذا العقاب الذي يُلازم مَنْ نسي ربَّه ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾(١).

وذلك أشد عقاب يُعَاقَبُ به أهلُ الجُحُود والغفلة والنسيان.

فإن هذا العقاب - نعُوذُ بالله منه - يجعل صاحبَه يفعل أفحش الكبائر والمنكرات، وهو يحسبُ أنه يصنع لنفسه الصالحات النافعات.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾(٢).

ولذلك نَهى الله أهلَ الإيمان وحذَّرهُم أن يكونوا كهؤلاء الذين نَسُوا الله، وأمرهم - من قبل - أن يستحضروا ما هُم مُقْبلون إليه ومُحاسَبُون عليه، وهو واقِعٌ مَا لَهُ من دافعٍ.

فقال سبحانه: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(٣).

وتلك هي العاقبة، ولا يستوي الناسُ فيها.

﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾(٤).

ونرى من سُنن الله في خَلْقه، وما أجراه الله للصالحين من عباده أنَّ أهْلَ الصِّدْق والإيمان - وهم يأخذون بالأسباب في نُصْرَة حَقٍّ وإبطال باطلٍ -

---

(١) الحشر: ١٩.
(٢) الكهف: ١٠٣ - ١٠٦.
(٣) الحشر: ١٩.
(٤) الحشر: ٢٠.

نراهُم يُحسنون الظن بالله، ويثقون في وعْده، ويتوكلون عليه لا على أحد سُواه.

ولذلك نرى سَيِّدَ الخَلْق ﷺ يأمرُ عَليّاً - في طمأنينة وثقة - قائلاً له:

نَمْ على فراشي، وتَسَجَّ[1] ببُرْدي هذا الحَضْرَمي الأخضر، فَنَمْ فيه فإنه لن يَخْلُصَ إليك شيءٌ تكرهه منهم.

وكان رسول الله ﷺ ينامُ في بُرْده ذلك إذا نام.

ثم يخرجُ ﷺ علي المتآمرين، ويأخذ حِفْنَةً من تراب في يده ينْثُرها على رؤوسهم، وهو يتلو هذه الآياتِ من سورة (يس):

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[2].

ثم انصرف ﷺ إلى حيث أراد أنْ يذهب، ليبدأ رحلَتَه في هجرة مُباركة إلى المدينة المُنَوَّرَة. فماذا كان فيها من دروسٍ وعِبَرٍ، والقومُ لا زالوا يُحاصرون الدَّارَ بمَن أحضروهم من فتيان؟

بينما المتآمرون يرقبون البيت النبوي ويرصدونه، إذ بآتٍ - ممَّن لم يكن معهم - يأتيهم ويقول لهم: ما تنتظرون هنا؟!

قالوا: محمداً.

قال: خيَّبَكُمُ اللهُ، والله لقد خرج عليكم محمدٌ، ثُمَّ ما ترك منكم رَجُلاً إلا وقد وضعَ على رأسه تراباً، وانطلق لحاجته، أَفَمَا تَرَوْنَ ما بكم؟

---

(١) تَسَجَّ بالثوب: أي غطَّى به جسده ووجهه.

(٢) يس: ١ - ٩.

فوضع كلُّ رَجُلٍ منهم يدَه على رأسه، فإذا عليه ترابٌ، وهم:

أبو جهل، والحَكَم بن العاص، وعقبةُ بن أبي معيط، والنضرُ بن الحارث، وأمية بن خلف، وزمعةُ بن الأسود، وطعيمة بن عدي، وأبو لهب، وأُبَيٌّ بن خلف، ونبيه ومنبه بن الحجاج.

ثُمَّ جعلوا يتطلعون فيرون عَلِيّاً في الفراش مُتَسَجِّياً بِبُرْدِ رسول الله ﷺ فيقولون: والله، إن هذا لمحمد نائم عليه بُرْده

فلم يَبْرَحُوا كذلك حتَّى أصبَحُوا.

فقام عليٌّ رضي الله عنه عن الفراش فقالوا: والله، لقد كان صَدَقَنا الذي حدَّثنا

وهكذا نرى الأحداثَ تجري؛ لتُعَلِّمَ الناس - في كلَّ خُطوة - أن الأمْرَ كلَّه بيد الله لا بيد أحد سُواه.

وكان مما أنزل الله عز وجل من القرآن في ذلك اليوم، وما كانوا أجمعوا له:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(١).

ففي هذه الآية دَلالَةٌ لا تَغيبُ، فإن معنى (إذْ): اذْكُرْ حينَ، والمقصودُ التذكير بما تضمَّنته هذه الآيةُ.

ولم يكن المراد تذكير رسول الله ﷺ فحَسْب، بل المراد تذكير النَّاسِ جميعاً بما وقَعَ له وما أُريدَ به، وإن خُوطِبَ الرسولُ ﷺ مباشرة بذلك.

فإن مخاطبته بشيء لها شأنُها في التدبُّر والتذكُّر للناس جميعاً، فإن الأمر إذا عَظُمَ خُوطبَ به سيِّدُ القوم ورئيسُهم؛ ليكون في ذلك بلاغٌ للناس، وإعلامٌ

(١) الأنفال: ٣٠.

وإنذارٌ يعرفون منه ما ترتب على ذلك المَكْر، وما جَرَى بعد سُوء تآمُرٍ وتدبير.

ويقفُون من دَلالاته على كثير من سُنن الله في خَلْقه، وما يقعُ في حياتهم من نتائج وعواقب.

وكيفَ لا يحفَظُ اللهُ من حَفِظَهُ؟! ومَنْ حَفِظَ اللهَ حُفِظَ..

وكيف لا يحيق المكرُ السيئ إلا بأهله؟!

يعرفون ذلك، ويَرَوْنَهُ في واقعٍ عمليٍّ تُتْلَى فيه آياتٌ وتُرَى فيه نتائجُ، فيأخذون حذرَهُم من سُوء عملهم، قبل أن يأخُذُوه من كَيْد عدوهم

ويَرْقُبُونَ الخيرَ من خالقهم بصِدْقِ وَلائهم لَهُ، وحُسْنِ توكلّهم عليه

ويُصِرُّونَ على التمسك بالحق من ربِّهم مهما اشتدَّت الأحوالُ وبلَغت المصاعب

ومَنْ تَدَبَّرَ العواقبَ أيْقَنَ أن الحقَّ لا يُهْزَمُ أبداً ﴿**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ**﴾[1].

الصُحبة يا رسول الله:

كان أبو بكر رضي الله عنه رجلاً ذا مال وفير، فكان كلما استَأذَنَ رسولَ الله ﷺ في الهجرة، يقول الرسولُ ﷺ له:

لا تَعْجَل لعل الله يجعلُ لك صاحباً.

فطمَع أبو بكر بأن يكون رسول الله ﷺ إنما يعني نفسه عندما قال له: لعَلَّ الله يجعلُ لك صاحباً.

فابتاع رضي الله عنه راحلتَيْن[2] فاحتَبَسَهُمَا في داره، يَعْلِفُهما إعداداً لذلك.

---

(١) الأنبياء: ١٨.

(٢) الراحلة: البعير القوى على الأسفار والأحمال.

وها نحن نرى الرسول ﷺ يتوجَّه - في بداية الهجرة - إلى بيت الصديق رضي الله عنه.

عَنْ عَائِشَةَ أمِّ المؤمنين - رَضِي اللَّه عَنْهَا - قَالَتْ:

كان لا يُخطئ رسول الله ﷺ أن يأتي بيتَ أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بُكْرَةً وإما عَشيَّةً.

حتى إذا كان اليومُ الذي أَذِنَ الله فيه لرسوله ﷺ في الهجرة، والخروج من مكة، أتانا رسولُ الله ﷺ بالهاجرة[1] في ساعة كان لا يأتي فيها.

قالت: فَلَمَّا رآه أبو بكر قال: ما جاء رسولُ الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حَدَث.

قالت: فَلَمَّا دخل تأخَّرَ له أبو بكر عن سريره.

فجلس رسول الله ﷺ وليس عند أبي بكر إلاَّ أنا وأُختي أسماء بنت أبي بكر

فقال رسول الله ﷺ: أَخْرِجْ عَنِّي مَنْ عِنْدَكَ.

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا هُمَا ابْنَتَايَ، وما ذاك؟ فداكَ أبي وأُمِّي

فقال ﷺ: إنَّ الله قد أذِنَ لي في الخروج والهجرة.

قالت: فقال أبو بكر: الصُّحْبَةَ يا رسول الله.

قال: الصُّحْبَةُ.

قالت: فوالله، ما شَعُرتُ - قَط قبل ذلك اليوم - أنَّ أحداً يبكي من الفَرَح، حتَّى رأيتُ أبا بكر يبكي يومئذ.

الإعداد للهجرة:

ثمَّ قال أبو بكر: يا نَبيَّ الله، هاتان راحلتان قد كنتُ أعددتهُما لهذا.

واستأجرا عبدالله بنَ أُريقط - رجلاً من بني الدَّئل بن بكر وكان مُشركاً - ليَدُلّهما على الطريق، فدفعا إليه راحلتيهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما.

---

(١) الهَاجِرَةُ: نصف النهار عند اشتداد الحَرّ.

ولم يعلم بخروج النبي ﷺ أحدٌ حين خرجَ، إلاَّ عليٌّ بن أبي طالب وأبو بكر الصديق، وآل أبي بكر.

أما عليٌّ رضي الله عنه فإنَّ رسولَ الله ﷺ أخبره بخروجه، وأَمَرَهُ أن يتَخَلَّفَ بعده بمكة؛ حتَّى يُؤدِّي عن رسول الله ﷺ الودائعَ التي كانت عنده للناس

ولم يكن بمكة أحدٌ عنده شيءٌ يَخْشَى عليه، إلا وضعه عند رسول الله ﷺ لما يعلمُ من صِدْقِه وأمانته ﷺ.

فَلَمَّا أجْمَعَ رسولُ الله ﷺ الخروج أتى أبا بكر، فخرجا من خَوْخَةٍ[1] لأبي بكر في ظَهْر بيته، ثم عمدا إلى «غار ثَوْرٍ»[2] فدخلاه.

وأمر أبو بكر ابنَهُ عبدَ الله أنْ يَتَسمَّع لهما ما يقولُ الناسُ فيهما نَهَارَه، ثُمَّ يأتيهما إذا أمسى بما يكونُ في ذلك اليوم من الخَبَر.

فكان عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش نَهَارَه معهم، يسمع ما يأتمرون به وما يقولون في شأن رسول الله ﷺ وأبي بكر، ثُمَّ يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر.

وأمر عَامرَ بنَ فُهَيْرَةَ، مولاه أن يرعى غنمَه نَهَارَه، ثُمَّ يُريحهما عليهما فيأتيهما إذا أمسى في الغار.

فكان عامر بن فهيرة يرعى في رُعْيَان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر، فاحتلبا وذبحا.

فإذا خرج عبدُ الله بن أبي بكر من عندهما إلى مكة، اتبع عامرُ ابن فهيرة أَثَرَهُ بالغنم حتَّى يُعَفِّيَ عليه.

كما كانت أسماءُ بنتُ أبي بكر - رضي الله عنها - تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يُصْلحهما.

---

(١) الخَوْخَةُ: كُوَّة في البيت تؤدِّي إليه الضوء.
(٢) غار ثَوْرٍ: الغار نَقْبٌ في الجبل، وثورٌ جبل بمكة.

وذات مرَّة أتتهما أسماءُ بسُفْرَتهما، ونَسيَتْ أنْ تجعل لها عِصَاماً[١] فَلَمَّا ارتحلا، ذهبت لتُعلِّق السُفْرَة فإذا ليس لها عِصَام، فحلَّت نطاقَها[٢] فجعلته عصاماً، ثُمَّ علَّقتها به.

قال ابنُ هشام:

وسمعتُ غيرَ واحدٍ من أهل العلم يقولُ: (ذات النطاقين) وتفسيره: أنهما لَمَّا أرَادَتْ أن تُعلِّقَ السُفْرةَ شَقَّت نطَاقَهَا اثنين، فعَلَّقَت السُفْرة بواحدٍ، وانْتَطَقَتْ بالآخَر.

إذْ هُمَا في الغار:

نحنُ مع نُور الغار لم نفارقه بعد، فَلْنَر ما يكون؛ لنأخُذَ من الزَّاد - زاد التقوى - ما تَقَرُّ به العُيُون.

فإنَّ رحلةَ الهجرة إلى الحبيبة المُحبَّبَة المدينة المُنَوَّرَة، فيها دروسٌ ودروسٌ

وإذا كان لكلِّ مَنْ هاجَرَ إليها قصةٌ فيها عِبْرَة أو عبَر، فإن الهجرة مع الرسول الكريم ﷺ ترينا كيف اختارَ الصِّديق ليكون له صاحباً

وكان الصِّديقُ جديراً بالصُّحْبَة، فأكرَمَهُ الله بها.

أخرج الحاكم في مستدركه عن عليّ رضي الله عنه قال: «قال النبيُّ ﷺ لجبريل: من يُهَاجِرُ معي؟ قال: أبو بكر الصديقُ»[٣].

وروَى الإمامُ أحمد عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «مَا نَفَعَنِي مَالٌ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ»[٤] فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: هَلْ أَنَا وَمَالِي إلاَّ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّه؟

---

(١) العصام: الحبل الذي يُشدُّ على فم المزادة.

(٢) النِّطاقُ: شبه إزارٍ فيه تكَّةٌ كانت المرأة تَتنَطق به.

(٣) المستدرك على الصحيحين ٦/٣، حديث رقم ٤٢٦٦، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد والمتن.

(٤) الترمذي - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٥٩٤، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

وروى صاحبُ [حلية الأولياء] الحافظُ أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

«لما كانت ليلةُ الغار قال أبو بكر: يا رسول الله، دَعْني فَلأَدْخُل قبلك، فإن كانت حَيَّةً أو شيء كانت لي قبلك.

قال: ادْخُل.

فدخل أبو بكر، فجعل يلتمسُ بيديه، فكلَّما رأى جُحْرَاً جاء بثوبه، فَشَقَّهُ، ثُمَّ أَلْقَمَهُ الحَجَرَ، حتَّى فعل ذلك بثوبه أَجْمَع.

قال: فبقي جُحْرٌ، فوضع عَقِبَهُ[1] عليه، ثُمَّ أدْخَلَ رسول الله ﷺ

قال: فَلَمَّا أصبحَ قال له النبيُّ ﷺ: فأين ثوبُك يا أبا بكر؟

فأخبره بالذي صنع، فرفع النبي ﷺ يده، وقال:

اللهم اجعل أبا بكر معي في درجتي يوم القيامة.

فأوحى الله تعالى إليه: إنَّ الله قد استجاب لك»[2].

وفي الصحيحين أن أبا بكر رضي الله عنه قال:

«يا رسول الله، لو أن أحَدَهم نَظَرَ إلى ما تحت قدميه لأَبْصَرَنا».

فقال النبي ﷺ: «يا أبا بكر، ما ظَنُّكَ باثنين اللهُ ثالثُهما. لا تحزن إن الله معنا»[3].

وكان النبي ﷺ وأبو بكر يَسْمَعان كلامَهم فوق رؤوسهما، ولكنَّ الله - سبحانه - عَمَّى عليهم أمَرهما.

---

(١) العَقِب: مُؤخر القَدَم.

(٢) حلية الأولياء: ٣٣/١.

(٣) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٣٨٠.

لذلك لم يكن غريباً أن يذكر صاحبُ [حلية الأولياء] هذه الكلمات عن أبي بكر الصديق، وأن يبدأ بها مُصنَّفَه:

«أبو بكر الصِّديق، السَّابق إلى التصديق، المُلَقَّب بالعتيق، المؤيَّدُ من الله بالتوفيق، صاحبُ النبي ﷺ في الحَضَر والأسْفَار، ورفيقُه الشَّفيقُ في جميع الأطوار، وضَجيعُه بعد الموت في الرَّوْضة المحفوفة بالأنوار، المخصوصُ في الذِّكْر الحكيم بمَفْخَرٍ فَاقَ به كافَّةَ الأخيار وعامَّةَ الأبْرَار، وبقي له شَرفُه على كُرُور الأعْصَار، ولم يَسْمُ إلى ذرْوَته هِمَمُ أولي الأيْد والأبْصَار، حيث يقولُ عالمُ الأسْرار: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾[١] إلى غير ذلك من الآيات والآثار، ومشهور النصوص الواردة فيه والأخبار التي غَدَتْ كالشمس في الانتشار»[٢].

مواقف لأسماء - رضي الله عنها -:

- **الموقف الأول:**

قال ابنُ إسحاق: حُدِّثتُ عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت:

لمَّا خرج رسولُ الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه أتانا نَفَرٌ من قريش فيهم أبو جهل ابن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فَخَرَجْتُ إليهم.

فقالوا: أين أبُوك يا بنت أبي بكر؟

قالتْ: قلتُ: لا أدري - والله - أين أبي.

قالت: فرفع أبو جهلٍ يدَه - وكان فاحِشاً خبيثاً - فَلَطَم خَدِّي لَطْمَةً طَرَح منها قُرْطي[٣].

---

(١) التوبة: ٤٠.

(٢) حلية الأولياء: ٢٨/١.

(٣) القُرط: ما يُلبس في الأذن من الحُلي.

إيهِ.. مَهْلاً يا أبا جهلٍ، فَسَنَرَى كيفَ تكونُ العواقب..

لقد كانت أسماءُ بنتُ الصدِّيق صادقةً عندما أجابتْ أبا جهل حين سألَها: أين أبوك؟ فقالت: لا أدري - والله - أين أبي.

فقد مَكَثَتْ ثلاثَ ليالٍ وما تدري أين وُجِّهَ رسول الله.

قالت: حتَّى أقبل رجلٌ من الجنِّ من أسفل مكة يتغنى بأبيات من شعر غناءَ العرب، وإنَّ النَّاس ليَتَّبعُونَه، يسمعون صوتَه وما يَرَوْنَه.

حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول:

جَزى الله ربُّ النَّاس خَيْرَ جَزائه رفيقَيْن حَلاَّ خَيْمَتي أُمَّ مَعْبَد[1]

همـا نَـزَلا بالبـر ثُمَّ تروَّحَـا فأفْلَحَ مَنْ أمْسَى رفيـقَ مُحَمّد

ويُروى أن «حسَّانَ بن ثابت»[2] لَمَّا بلغه شعر الجنِّ وما هَتَفَ به في مكة، قال أبياتاً مطلعُها:

لقَدْ خَابَ قَوْمٌ غَابَ عنْهُم نَبيُّهم وقَدْ سُرَّ مَنْ يَسري إليهم ويَغْتَدي

● **الموقف الثاني:**

قالتْ أسماءُ - رضي الله عنها -:

لَمَّا خرج رسول الله ﷺ، وخرج أبو بكر معه، احْتَمَل أبو بكر مالَه كلَّه ومعه خمسة آلاف درهم، أو ستة آلاف، فانطلق بها معه.

قالت: فدخل علينا جَدِّي أبو قحافة - وقد ذهب بصرُه - فقال:

والله، إني لأَرَاهُ قد فَجَعَكُم بماله مع نفسه.

---

(١) هي أُمّ مَعْبَد بنت كَعْب امرأةٌ من بني كعب من خُزاعة.

(٢) هو حسان بن ثابت الأنصاري شاعر الرسول ﷺ.

قالت: قلتُ: كلا يا أبت، إنَّه قد تَرَكَ لنا خيراً كثيراً.

قالت: فأخذتُ أحجاراً، فوضعتُها في كَوَّةٍ[1] في البيت كان أبي يضع مالَهُ فيها، ثُمَّ وضَعْتُ عليها ثوباً

ثم أخَذْتُ بيده فقلتُ: يا أبت، ضَعْ يدك على هذا المال.

قالت: فوضَعَ يده عليه، فقال: لا بأس، إذا كان ترك لكم هذا فقد أَحْسَنَ، وفي هذا بلاغ لكم.

تقول أسماء: لا والله، ما تَرَكَ لنا شيئاً، ولكني أردتُ أن أُسكنَ الشيخَ بذلك.

أُمُّ مَعْبَد وشأنُها في الهجرة المباركة:

ولنَمْضِ مع المَوْكب الطَّهُور.

أبو بكر الصِّديق يُقرِّب الراحلتين إلى رسول الله ﷺ، ويُقدِّمُ له أفضلَهما..

ويقول لرسول الله ﷺ: فداك أبي وأمي، ارْكَبْ.

فيقول رسول الله ﷺ: إني لا أركبُ بَعيراً ليس لي.

قال: فهي لك يا رسول الله، بأبي أنت وأُمِّي.

قال: لا، ولكن ما الثَّمَنُ الذي ابتعتَهَا به؟

قال: كذا، وكذا.

قال: قَدْ أخَذْتُهَا به.

قال: هي لك يا رسول الله، فركبا وانطلقا.

وأردف أبو بكر رضي الله عنه عامرَ بن فهيرة، مولاه خلفه؛ ليخدمهما في الطريق.

---

(١) الكَوَّةُ: الخَرْق في الحائط، والثقب في البيت ونحوه.

وفي الطريق إلى المدينة مرَّ النبي ﷺ بأم معبد هو وأبو بكر، ومولى أبي بكر، ودليلهما.

فما قصتها في الهجرة؟ وماذا لاقت من الخير والبركة بحُلول رسول الله ﷺ خيمتها؟

كانت أُمُّ مَعْبَدٍ بَرْزَةً جَلْدَةً[١] تختبئ بفناء القبة، ثُمَّ تستقي وتُطعِم

فسألوها لحْماً وتَمْراً يشترونه منها، فلم يُصيبُوا عندها شيئاً.

فنَظَرَ رسولُ الله ﷺ بكِسْر[٢] الخيمة فقال:

ما هذه الشاة يا أُمَّ مَعْبَد؟

قالت: شَاةٌ خَلَّفها الجَهْدُ عن الغنم.

فقال: هلْ بها من لَبَنٍ؟

قالت: هي أجهَد من ذلك.

قال: أَتَأْذَنينَ لي أن أحْلبَها؟

قالت: بأبي أنت وأُمّي، إن رأيتَ بها حلباً فاحلبها.

فمسح رسولُ الله ﷺ بيده ضَرْعَها، وسَمَّى اللهَ ودعا، فتفاجَّتْ عليه[٣] ودرَّتْ واجْتَرَّتْ.

فدعا بإناءٍ لها يُرْبِضُ الرهْط[٤] فحلب فيه حتَّى عَلَتْهُ الرَّغْوة، فسقاها، فشربت حتَّى رويَتْ، وسقى أصحابَه حتَّى رَوُوا، ثُمَّ شرب.

---

(١) امرأة بَرْزَةٌ: تَبْرُزُ للقوم، يجلسون إليها، ويتحدَّثون عنها، وقيل: بَرْزَة هي موثوق برأْيها وعفافها.
(٢) كسر الخيمة: أي جانبها.
(٣) تفاجَّتْ: أي فتحت رجليها لتُحلَب.
(٤) الرهط: ما دون العشرة من الرجال. ويُربِضُ الرهط: يرويهم ويثقلهم حتَّى يناموا ويمتدوا على الأرض.

وحلب فيه ثانياً حتَّى ملأ الإناءَ، ثُمَّ غادره عندها وارتحلوا.

فما لبثتْ حتَّى جاء زوْجُها أبو معبد يَسُوق أَعْنُزاً عِجَافاً يتساوكْن[١] هُزَالاً، لا نِقَى[٢] بهن، فلَمَّا رأى اللَّبن عَجِبَ وقال: من أين لك هذا والشَّاةُ عَازبٌ حيال ولا حَلُوب[٣] في البيت؟

فقالت: لا والله، إلاَّ أنّه مَرَّ بنا رجلٌ مبارك كان من حديثه كيت وكيت، ومن حاله كذا وكذا.

قال: والله إني لأراه صاحبَ قريش الذي تَطْلُبه، صِفيه لي يا أمَّ معبد

قالت: ظاهِرِ الوَضَاءة[٤] أبْلَجُ[٥] الوجه، حَسَن الخَلْق، لم تَعِبْهُ ثُجْلَه[٦] ولم تُزر به صُعْلَة[٧] وسيم[٨] قَسيم، في عينيه دَعَجٌ[٩] وفي أشفارِه وَطَفٌ[١٠] وفي صوته صَحَل[١١] وفي عُنقِه سَطَعٌ[١٢] أحْوَرُ[١٣] أكحلُ، أزَجُّ[١٤] أقرنُ[١٥] شديد سواد الشعر.

---

(١) يتساوكن: يتمايلن من شدة ضعفهن.
(٢) النقى: مخ العظم.
(٣) حَلُوب: ذات لبن.
(٤) الوَضَاءة: الحُسْن والنظافة.
(٥) أبلج الوجه: مُشرقه ومُسفره.
(٦) الثجلة: ضخامة البطن.
(٧) الصعلةُ: صغر الرأس.
(٨) الوسيم: الحسن، وكذلك القسيم.
(٩) الدعج: سواد العين.
(١٠) في أشفاره وطف: أي في شعر أجفانه طول.
(١١) في صَوْته صَحَلٌ: أي كالبُحَّة وأن لا يكون حاداً.
(١٢) في عُنقُه سَطَعٌ: أي طُول.
(١٣) الحَوَرُ: أن يَشْتَدَّ بياضُ العين وسَوادُ سَوادِها وتسدير حدقتها وترق جفونها ويبيضَّ ما حواليها.
(١٤) يقال: أزَجَّ في مشيته، أي أسْرَع.
(١٥) أقْرَن: أي مقرون الحاجبين.

إذا صمت عَلاه الوقارُ، وإنْ تكلَّم عَلاه البهاءُ.

أجملُ الناس وأبْهاهم من بعيد، وأحسنُه وأحلاهُ من قريب.

حُلْو المنطق، فَصْلٌ، لا نَزْر ولا هَذْر(١).

كأنَّ مَنْطِقَه خرزاتُ نَظْمٍ يَتَحدَّرنَ.

رَبْعةٌ(٢) لا تَقْحمه عيْنٌ من قِصَرٍ، ولا تَشْنَؤُه من طُول، غُصْنٌ بين غُصنين، فهو أنضرُ الثلاثة مَنْظَرًا، وأحْسَنُهم قَدْرًا.

له رفقاءُ يَحُفُّون به، إذا قال: استمعوا لقوله، وإذا أَمَرَ تبادَرُوا إلى أمره محفودٌ(٣) محشودٌ(٤) لا عابسٌ ولا مُفْنِد(٥).

قال أبو مَعْبَد: هذا - والله - صاحب قريش الذي ذُكِرَ لنا من أَمْره ما ذُكِرَ بمكة.

لقد هَمَمْتُ أن أصْحبه، ولأَفْعَلَنَّ إنْ وجدتُ إلى ذلك سبيلاً.

سُرَاقَة بن مالك وما سعى له وما انتهى إليه:

لَمَّا رأتْ قريشُ أنَّ الله قد أبْطَل سعيَها، وحفظ رسولَه من سُوء تدبيرها.

حَفظَهُ ربُّهُ في أضيق مكان، في غار ثور، وخيَّبهم من قَبْلُ في انتظارهم له وهم يُحيطون بيتَه، وأعمى أبصارَهم وهو يخرج عليهم، كما أعمى أبصارَهم وهو أمام أعينهم، ومعه صاحبه وهما في الغار ﴿**إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾(٦).

---

(١) يقال: منطقٌ فَصْلٌ، لا نَزْر ولا هَذْر: أي بَيِّن ظاهر يفصل بين الحق والباطل.

(٢) رَبْعَة: أي مَرْبُوعُ الخَلْق لا بالطويل ولا بالقصير.

(٣) المحفود: الذي يخدمه أصحابه، ويعظمونه، ويسرعون في طاعته.

(٤) المحشود: الذي يجتمع إليه الناس.

(٥) المفند: الذي يكثر لومُه.

(٦) التوبة: ٤٠.

والقوم واقفون على بابٍ ليس للغَار غيره.

لما رأت قريش ذلك، لم يبق أمامَها - وقد طار صوابُها - إلاَّ أن تُعلِن عن جائزة كُبرى لمَنْ يردُّه إليها.

قال ابنُ إسحاق:

وحدثني الزُّهري أنَّ عبدالرحمن بن مالك بن جُعْشُم حدَّثه عن أبيه، عن عمِّه سُراقة بن مالك ابن جُعْشم، قال:

لمَّا خرج رسولُ الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة، جَعَلَتْ قريشُ فيه مئة ناقة لمَنْ يردُّهُ عليهم.

قال: فبينما أنا جالسٌ في نادي قومي، إذ اقبَلَ رجلٌ منَّا حتَّى وقَفَ علينا فقال:

والله، لقد رأيتُ ركَبَةً ثلاثةً مَرُّوا عليَّ آنفاً، إني لأَرَاهُم محمداً وأصحابه

قال: فأَوْمَأْتُ إليه بعيني: أنْ اسْكُتْ، ثُمَّ قلتُ:

إنما هُم بنو فلانٍ، يبتغون ضَالَّةً لهم.

قال: لعلَّه. ثُمَّ سَكَتَ.

قال: ثُمَّ مَكَثْتُ قليلاً، ثُمَّ قُمْتُ، فدخلتُ بيتي، ثُمَّ أمَرْتُ بفرسي، فقُيِّدَ لي إلى بطْن الوادي، وأمرْتُ بسلاحي، فأُخْرِجَ لي من دُبر حُجرتي

ثم أخذتُ قداحي التي أسْتَقْسمُ بها[1] ثُمَّ انطلقْتُ فلبَسْتُ لأَمَتي[2] ثُمَّ أخرجتُ قداحي فَاسْتَقْسَمْتُ بها فخرج السَّهْمُ الذي أَكْرَهُ (لا يَضُرُّه) أي: السهم المكتوب فيه هذه الكلمة.

---

(١) الاستقسام بالقداح: هو طلب القسم منها، وهو لون من الشرك بالله.
(٢) اللأَمَةُ: الدرع.

قال: وكنتُ أرجو أن أردَّه على قريش، فآخذ المئة النَّاقة.

قال: فركبتُ على أثره، فبينما فرسي يشتدُّ بي عثَرَ بي، فسقطتُ عنه

قال: فقلتُ: ما هذا؟!

قال: ثُمَّ أخرجتُ قداحي فاستَقْسَمْتُ بها، فخرج السَّهْمُ الذي أَكْرَهُ (لا يَضُرُّه)

قال: فأَبَيْتُ إلاَّ أن أتَّبعَهُ.

قال: فركبتُ في أثره، فبينما فرسي يشتدُّ بي عثَرَ بي، فسقطتُ عنه.

قال: فقلتُ: ما هذا؟!

قال: ثُمَّ أخرجت قداحي فاستَقْسَمْتُ بها، فخرج السَّهْمُ الذي أَكْرَهُ (لا يَضُرُّه)

قال: فأَبَيْتُ إلاَّ أن أتَّبعَهُ، فركبت في أثره..

فَلَمَّا بَدا لي القومُ ورأيتُهم عثُر بي فرسي، فَذَهَبَتْ يداه في الأرض، وسقطتُ عنه، ثُمَّ انتزع يديه من الأرض، وتبعهما دُخَان كالإعصار!

قال: فعَرفتُ - حين رأيتُ ذلك - أنَّه قد مُنِعَ مني، وأنه ظَاهرٌ.

قال: فنادَيْتُ القومَ، فقلت:

أنا سراقة بن جعشم، أنظِروني[1] أُكَلمكم، فوالله لا أريبكم، ولا يأتيكم مني شيءٌ تكرهونه.

قال: فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: قُلْ له: ومَا تبتغي منا.

قال: فقال ذلك أبو بكر.

قال: قلتُ: تكتُبَ لي كتاباً يكونُ آيةً بيني وبينك.

قال: اكتُبْ له يا أبا بكر.

---

(١) أنظروني: أي أمهلوني.

قال: فكتب لي كتاباً في عَظْمٍ، أو في رُقعَةٍ، أو في خَزَفَةٍ، ثُمَّ ألقَاه إليَّ، فأخذتُه فجعلتُه في كنانتي، ثُمَّ رجَعْتُ، فَسَكَتُّ، فلم أذْكُرْ شيئاً مما كان

حتى إذا كان فَتْحُ مكةَ على رسول الله ﷺ، وفرغ من حُنَيْن والطائف، خرجْتُ ومعي الكتاب لألقَاهُ، فَلَقيته بالجِعِرَّانَة[١].

قال: فدخلتُ في كتيبةٍ من خَيْلِ الأنْصَار.

قال: فجعلوا يَقْرعونني بالرِّماح، ويقولون: إليكَ ماذا تريدُ؟!

قال: فدَنَوْتُ من رسول الله ﷺ وهو على ناقته، والله، لكأنِّي أنظُرُ إلى سَاقه في غرْزه كأنهَّا جُمَّارة[٢]..

قال: فرفعتُ يدي بالكتاب، ثُمَّ قلتُ: يا رسول الله، هذا كتابُك، أنا سراقة ابن جعشم.

قال: فقال رسول الله ﷺ يوم وفاء وبِرٍّ، أدْنِه.

قال: فدَنَوْتُ منه، فأسلمْتُ، ثُمَّ تذكَّرْتُ شيئاً أسألُ رسولَ الله ﷺ عنه، فما أذكره إلا أني قلتُ:

يا رسول الله، الضَّالَّةُ من الإبل تَغْشَى حياضي، وقد ملأْتُهَا لإبلي، هل لي أَجْرٌ في أنْ أَسقيَها؟

قال: نعم، في كلِّ ذات كَبِدٍ[٣] حَرَّى أَجْرٌ.

قال: ثُمَّ رجعتُ إلى قومي، فسُقْتُ إلى رسول الله ﷺ صَدَقَتي.

*****

(١) الجِعْرانَةُ: موضع قريب من مكة، وهي في الحل وميقات الإحرام.
(٢) الغَرْزُ: ركابُ الرحْل، والجُمَّارَةُ: قلب النخلة وشحمتها، شبَّه ساقه ببياضها.
(٣) ذات كَبِدٍ: أي كل ما فيه روح.

لقد كانت المعجزات في هجرته ﷺ معبرةً أصدقَ تعبير عن رعاية الله في كُلِّ شأن من شئونه، ولنستمع إلى الصِّدِّيق وهو يُحَدِّثُ بشيء من ذلك.

في الصحيحين من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه عن أبى بكر الصديق قال:

«... أَسْرَيْنَا لَيْلَتَنَا كلَّها، حَتَّى قَامَ قَائمُ الظَّهِيرَة، وَخَلا الطَّرِيقُ لا يَمُرُّ فيه أَحَدٌ، فَرُفِعَتْ لَنَا صَخْرَةٌ طَوِيلَةٌ لَهَا ظِلٌّ لَمْ تَأْت عَلَيْه الشَّمْسُ، فَنَزَلْنَا عِنْدَهُ، وَسَوَّيْتُ للنَّبِيِّ ﷺ مَكَانًا بِيَدِي يَنَامُ عَلَيْه، وَبَسَطْتُ فيه فَرْوَةً، وَقُلْتُ: نَمْ يَا رَسُولَ اللَّه، وَأَنَا أَنْفُضُ لَكَ مَا حَوْلَكَ فَنَامَ، وَخَرَجْتُ أَنْفُضُ مَا حَوْلَهُ، فَإِذَا أَنَا بِرَاعٍ مُقْبِلٍ بِغَنَمِه إِلَى الصَّخْرَة، يُرِيدُ مِنْهَا مِثْلَ الَّذِي أَرَدْنَا

فَقُلْتُ لَهُ: لِمَنْ أَنْتَ يَا غُلامُ؟

فَقَالَ: لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَة، أَوْ مَكَّةَ.

قُلْتُ: أَفِي غَنَمِكَ لَبَنٌ؟

قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: أَفَتَحْلُبُ؟

قَالَ: نَعَمْ. فَأَخَذَ شَاةً

فَقُلْتُ: انْفُضِ الضَّرْعَ مِنَ التُّرَابِ وَالشَّعَرِ وَالْقَذَى.

قَالَ: فَرَأَيْتُ الْبَرَاءَ يَضْرِبُ إِحْدَى يَدَيْه عَلَى الأُخْرَى يَنْفُضُ، فَحَلَبَ فِي قَعْبٍ كُثْبَةً مِنْ لَبَنٍ، وَمَعِي إِدَاوَةٌ حَمَلْتُهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ يَرْتَوِي مِنْهَا يَشْرَبُ وَيَتَوَضَّأُ

فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُ، فَوَافَقْتُهُ حِينَ اسْتَيْقَظَ، فَصَبَبْتُ مِنَ الْمَاءِ عَلَى اللَّبَنِ حَتَّى بَرَدَ أَسْفَلُهُ

فَقُلْتُ: اشْرَبْ يَا رَسُولَ اللَّه

قَالَ: فَشَرِبَ حَتَّى رَضِيتُ، ثُمَّ قَالَ: أَلَمْ يَأْنِ لِلرَّحِيلِ؟

قُلْتُ: بَلَى.

قَالَ: فَارْتَحَلْنَا بَعْدَمَا مَالَتِ الشَّمْسُ.....»[1].

---

(١) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٣٤٦

من الغار إلى قُبَاء:

كان قُدوم رسول الله ﷺ المدينةَ يومَ الاثنين لاثني عشر من ربيع الأول، وكان خروجه ﷺ من الغار يوم الاثنين أول يوم من ربيع الأول..

تلك هي المُدَّة التي قضَاها الرَّكْبُ المباركُ من الغار إلى قُبَاء.

أمَّا المسافة فإنها تُقَدَّر بما يَقْرُب من خمس مئة كيلو متراً.

ويستطيع مَنْ نظَرَ في طريق الهجرة - منذ سلَك ابنُ أُرَيْقط أسفل مكة ومضى إلى الساحل حتَّى عَارض الطريق أسفل من عُسْفان[١] - أن يعرف أن الهجرة كانت جهاداً مؤيَّداً بالنَّصْر والتوفيق، وفي سبيل غايتها قد هانت الصِّعَاب.

يذكر ابنُ هشام - بعد بيانه للأماكن التي مَرَّ بها الرَّكْبُ الكريم - فيقول:

هبط بهما العَرْج[٢] وقد أبْطَأ عليهم بعضُ ظَهْرِهم، فَحَمَلَ رسولَ الله ﷺ رجلٌ من أسلَم يُقال له «أوس بن حجر» على جَمَلٍ له يُقالُ له «ابن الرَّداء» إلى المدينة، وبعث معه غُلاماً له يُقالُ له «مسعود بن هُنَيدة»

ثم خرج بهما دليلُهما من العَرْج، فسَلَكَ بهما ثنيَّة العائر[٣] عن يمين ركُوبة، حتَّى هبط بهما بطنَ رِئم، ثُمَّ قدِمَ بهما قُبَاء على بني عمرو بن عوف لاثنتي عشرة ليلة خَلَتَ من شهر ربيع الأول، يوم الاثنين حين اشتدَّ الضَّحَاء[٤] وكادت الشمسُ تعتدل.

قَدِمَ بهما الدليلُ إلى قُبَاء على بني عمرو بن عوف، وكان الانتظار لَمَقْدِم رسول الله ﷺ، وقد سمع به أصحابُه الذين آوَتْهُمُ المدينةُ المُنَوَّرَة.

---

(١) عُسفان: قرية جامعة على ستة وثلاثين ميلا من مكة، وهي لخزاعة خاصة.
(٢) العرج: جبل بين مكة والمدينة.
(٣) ويُقالُ لها «ثنيَّة الغائر» فيما قاله ابن هشام.
(٤) الضَّحَاءُ: إذا امْتَدَّ النهارُ وقرَبَ أن يَنْتَصِف.

المدينة تستقبل رسول الله ﷺ:

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير، عن عبدالرحمن بن عويمر بن ساعدة قال: حدثني رجال من قومي من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا:

لَمَّا سمعنا بمَخْرَج رسول الله ﷺ من مكة وتَوَكَّفْنَا[1] قدومه، كُنَّا نخرج - إذا صلَّينَا الصُّبْحَ - إلى ظَاهر حَرَّتَنَا؛ ننتظر رسول الله ﷺ فوالله، ما نَبْرَحُ حتَّى تغلبنا الشمسُ على الظِّلال، فإذا لم نجد ظِلاً دخلنا - وذلك في أيام حَارَّةٍ.

حتى إذا كان اليومُ الذي قدمَ فيه رسولُ الله ﷺ جلسنا كما كُنَّا نجلس، حتَّى إذا لم يَبْقَ ظِلٌّ، دخلنا بُيُوتَنَا

وقدمَ رسولُ الله ﷺ حين دخلنا البُيوت، فكان أول مَنْ رآه رجلٌ من اليهود، قد رأى ما كُنَّا نصنع، وأنَّا ننتظرُ قُدُومَ رسول الله ﷺ علينا، فصرخ بأعلى صوته: يا بني قيلَة، هذا جَدُّكُم قد جَاء.

فصرخ بأعلى صوته: يا بني قَيْلَةَ، هذا صَاحِبُكم قد جاء. هذا جدُّكم الذي تنتظرونه.

فبادر الأَنْصَار إلى السلاح ليتلقَّوا رسولَ الله ﷺ، وسُمِعَتِ الرَّجَّةُ والتكبير في بني عمرو بن عوف، وكبَّر المسلمون فرحًا بقُدُومه

وخرجوا للقائه، فتلقَّوْه، وحَيَّوْهُ بتحية النُّبُوَّة، وأحدقوا به، مطيفين حوله، والسكينةُ تغشاه، والوحي ينزلُ عليه ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ**﴾[2].

فسار ﷺ حتَّى نزل بقُباء في بني عمرو بن عوف، فنزل على كُلْثُومِ بنِ الهدْم، فأقام في بني عمرو بن عوف أربعَ عشرةَ ليلة، وأسَّسَ مسجدَ قُباء، وهو أولُ مسجد أُسِّسَ بعد النُّبُوَّة.

فلَمَّا كان يوم الجمعة رَكِبَ بأمرِ الله له، فأدركته الجمعةُ في بني سالم بن عوف، فَجَمَّع بهم في المسجد الذي في بطن الوادي.

ثم ركب فأخذوا بِخِطَام راحلته: هَلُمَّ إلى العدد والعُدَّة والسِّلاح والمَنَعَة.

---

(١) التوكُّف: التوقُّع والانتظار. (٢) التحريم: ٤.

فقال: خَلُّوا سبيلَها؛ فإنها مأمورة.

فلم تزل ناقتُه سائرةً به، لا تَمُرُّ بدارٍ من دُور الأنْصَار إلاَّ رَغِبُوا إليه في النزول إليهم، وهو يقول: دَعُوها فإنها مأمورة.

فسارت حتَّى وصَلَتْ إلى موضع مسجده اليومَ، وبَرَكَتْ، ولم ينزل عنها حتَّى نهضت وسَارَتْ قليلاً، ثُمَّ التفتَتْ، فرجَعَتْ، فبَرَكَتْ في موضعها الأول، فنزل عنها، وذلك في بني النجار أخواله ﷺ، وكان ذلك من توفيق الله لها؛ فإنَّه ﷺ أحبَّ أن ينزل على أخواله، يُكرمهم بذلك.

وبادر أبو أيوب الأنْصَاري رضي الله عنه إلى رَحْله، فأدْخَلَه بيتَه، فجعل رسول الله ﷺ يقول: المرءُ مع رَحْله.

وجاء أسعدُ بن زُرَارَة، فأخذ بزمام راحلته وكانت عنده، وأصبح كما قال أبو قيس صِرْمة الأنْصَاري، وكان ابن عباس يختلف إليه يتحفظ منه هذه الأبيات:

ثَوى في قريشٍ بِضْعَ عشرةَ حِجَّةً
ويَعْرِضُ في أهلِ المواسِمَ نَفْسَهُ

فلَمَّا أتانا واستقرَّت به النَّوى
وأصبحَ لا يخشى ظُلاَمةَ ظَالمِ

بذلنا له الأموالَ من حلِّ مالنا
نعادي الذي عادى من الناس كلِّهم

ونعلَمُ أن الله لا ربَّ غيرَهُ
يُذكِّر لو يَلقَى حبيبًا مُوَاتِيًا

فلم يَرَ مَنْ يُؤوِي ولم يرَ داعِيًا
وأصبحَ مَسْرورًا بِطَيْبَةَ رَاضِيَا

بعيدٍ ولا يخشى من الناس بَاغِيا
وأنفُسَنَا عند الوغَى والتآسِيَا

جميعًا وإن كان الحبيبَ المصافِيَا
وأن كتاب الله أصبحَ هَادِيَا

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -:

كان رسول الله ﷺ بمكة فأمرَ بالهجرة وأُنزل عليه: ﴿**وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا**﴾[١].

وقال قتادة:

أخرجه الله من مكة إلى المدينة مُخْرَجَ صِدْقٍ، ونبيُّ الله يَعْلَمُ أنَّه لا طاقة له بهذا الأمر إلاَّ بسُلطان، فسَأَلَ الله سُلطانًا نصيرًا، وأرَاهُ اللهُ عز وجل دارَ الهجرة وهو بمكة فقال: «أُريتُ دارَ هجرتكم بِسبْخَةٍ[٢] ذات نَخْلٍ بين لابَتَيْن[٣]»[٤].

وأخرج البخاري ومسلم أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أُهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ، فَذَهَبَ وَهَلِي إِلَى أَنَّهَا الْيَمَامَةُ أَوْ هَجَرُ، فَإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ، يَثْرِبُ...»[٥].

وفى الصحيحين عن الْبَرَاء بْن عَازِبٍ - رَضِي اللَّه عَنْهمَا - قَالَ:

«أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَكَانَا يُقْرِئَانِ النَّاسَ، فَقَدِمَ بِلالٌ وَسَعْدٌ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، ثُمَّ قَدِمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي عِشْرِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ فَمَا رَأَيْتُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَرِحُوا بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى جَعَلَ الإِمَاءُ يَقُلْنَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ...»[٦].

وقال أنس رضي الله عنه:

«شهدتُه يوم دخل المدينةَ، فما رأيتُ يوما - قَطُّ - كان أَحْسَنَ ولا أضْوَأ من يوم دخل المدينةَ علينا، وشهدتُه يوم مات، فما رأيتُ يومًا قَطُّ كان أقْبَحَ ولا أظْلَمَ من يوم مات»[٧].

هكذا استقرت أقدامُه ﷺ على ثَرَى طيبة الطيِّبة، فأشرقت بنور ربِّها، وحَظِيَتْ بما لم تحظ به بقعةٌ سُواها.

---

(١) الإسراء: ٨٠ . (٢) السبخة: أرض ذات ملح.
(٣) اللابة: الأرض التي ألبستها الحجارة السود، وجمعها (لابات).
(٤) البخاري - كتاب الحوالة، حديث رقم ٢١٣٤، كتاب المناقب، حديث ٣٦١٦.
(٥) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٣٥٢، مسلم - كتاب الرؤيا، حديث رقم ٤٢١٧.
(٦) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٦٣٢، تفسير القرآن، حديث رقم ٤٥٦٠ .
(٧) مسند أحمد - باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١٣٥٥٠، سنن الدارمي - المقدمة، حديث رقم ٨٨ .